الفصل الأول

الطاغية.. في صورة الذئب!

«نظرية أفلاطون»

«إذا ذاق المرء قطعة من لحم الإنسان تحول إلى ذئب..!»

«ومن يقتل الناس ظلمًا وعدوانًا، ويذق بلسان وفم دنسين دماء أهله ويشردهم ويقتلهم.. فمن المحتم أن ينتهي به الأمر إلى أن يصبح طاغية ويتحول إلى ذئب..!».

«أفلاطون: الجمهورية 466»

أولاً: الفيلسوف.. والطاغية

أ - لقاء مع أشهر الطغاة:

تجربة أفلاطون مع الطاغية في غاية الأهمية لهذا البحث، ذلك لأن شخصية ديونسيوس كانت شهيرة وبارزة في عالم أفلاطون من ناحية، ولأن هذه الشخصية من ناحية أخرى، هي التي أثرت في تكوين آراء الفلاسفة عن الطغيان خلال القرن الرابع قبل الميلاد[1]. ومن هنا لم يكن أفلاطون

(1) A. Andrewes: The Greek Tyrants p. 8. Hutchinson's University Library.

صاحب أول نظرية فلسـفية عن الطغيان السياسي فحسب، بل كان كذلك أول فيلسـوف يلتقي بالطاغية وجهًا لوجه، ويخبره بنفسـه خبرة عملية، قبل أن يضع فيه نظريته الفلسـفية - كما أنه خبر بنفسـه أيضًا «طغيان العامة» - أو مـا يسـميه هو بالنظام الديمقراطي، ونسـميه نحـن الآن بالفوضوية أو الديماجوجية - وليس الديمقراطية الحقة، فالديمقراطية اليونانية التي عاصرها أفلاطون هي التي حكمت على أستاذه سقراط بالموت عام 399 ق.م فهو من هذه الزاوية أيضًا يتحدث عن نوعين من الطغيان السـياسي خبرهما بنفسـه، ولهذا فإننا نسـتطيع أن نتحدث عن خبرته عنهما ونستفتيه في أمر «الطغيان» ونطمئن لرأيه في الحكم على هذا «النظام السياسي» لأننا نسأل به خبيرًا..!

ضاقت نفس أفلاطون بالحيـاة في أثينا بعد أن نفذت الديمقراطية حكم الإعدام في سقراط، فهجرها، وقام بكثير من الرحلات، زار خلالها «ميجارا»، لكنه لم يبق فيها طويلاً[1]. بل راح ينتقل خلال الاثنتي عشرة سنة التالية من عام 398 إلى عام 386 ق. م، على نطاق واسع في بلاد اليونان، ومصر، وإيطاليا، وصقليـة[2]. وبقى في مصر فترة من الوقت، تعرف فيها على الديانة المصرية، وتعلم من كهنتها على نحو ما هو واضح في محاوراته[3]، وإن كنا نشك كثيرًا فيما يرويه البعض من أن أفلاطون عندما زار مصر تأثر بالاستبداد الهيراركي

(1) لا بد من الانتباه جيدًا إلى أن الديمقراطية التي يتحدث عنها أفلاطون ليست هي الديمقراطية الحقة. بل هي أقرب إلى الفوضى، أو الديماجوجية، أو حكم الغوغاء. وسوف نعود إلى هذا الموضوع فيما بعد.

(2) قارن «جورج سارتون تاريخ العلم» جـ 3 ص 12.

(3) قارن محاورة طيماوس لأفلاطون حيث يقول الكاهن المصري لصولون «أيها الإغريق أنتم مازلتم أطفالاً.. ولا تختلف أحداث بلادكم عن خرافات الصبية» 23 - أ.

الـذي كان قائمًا هناك»[1] فخبرة أفلاطون الحقيقيـة عن الطغيان جاءته بعد أن ترك مـصر متوجهًا إلى «تارنت» في جنوب إيطاليا، حيث أرسـل له أعتى طغـاة الشرق ديونسـيوس الأول Dionysius - طاغية سـيراقوصة Syracuse الشـهير - يدعوه لزيارته زاعمًا أنه أوتي ذوقًا أدبيًا، وحسًـا فلسـفيًا[2] ويبدو أن ديونسـيوس كان كاتبًا تراجيديًّا على ما يروي بعض المؤرخين[3]. ويقول ديورانت عن هذا الطاغية: «إنه كان رجلاً واسع الثقافة، وكان شاعرًا، ولما طلب إلى الشـاعر فيلكسـنوس رأيه في شـعره وأجاب بأنه غث لا قيمة له، حكم عليه بالأشـغال الشـاقة المؤبدة في المحاجر»[4] والحق أن ديونسيوس الأول كان كاتبًا تراجيديًّا محـدود القدرة، ربح بعض جوائز في الاحتفالات الثقافية، لكنه كغيره من الطغاة الذي اهتموا بالفنون - من أمثال «نيرون» - الذين كانوا يشـعرون بالغيرة الشـديدة من منافسـيهم، أو مـن حكم النقاد على أعمالهم، ولذلك عندما رفض الشاعر فيلكسنوس philoxenes أن يمتدح هذه الأعمال بعث به ديونسـيوس إلى السـجن، لكنه عاد فأرسل إليه ليستمع إلى «تراجيديًّا ملكية» جديدة كتبها الطاغية، ووقف الشاعر أمامه صامتًا، وعندما سأله عن رأيه فيما سمع لم يجب بل مال على حارسه وهو يقول: «عد بي إلى السجن»[5].

---

(1) D - M. Latey: Tyrann p. 144 (pelican Book).

(2) السؤال: لم يرج الطغاة بأنفسهم في عالم الثقافة؟، وهل هو تقدير دفين عندهم لهذا العالم أم هو إحساس بالدونية؟! يحتاج للإجابة عنه إلى بحث قائم بذاته!.

(3) M. Latey: Op. Cit. p. 173.

(4) قصة الحضارة - مجلد 7 - ص 402.

(5) M. Latey: Tyranny p. 173.

لماذا لبى أفلاطون دعوة هذا الطاغية..؟! تتعدد الروايات: يعتقد البعض أن أفلاطون سافر من جنوب إيطاليا إلى سيراقوصة في صقلية لكي يشاهد ما فيها من براكين، والبعض الآخر يرى أن هذا الطاغية قد أسس أقوى مدينة في العالم الإغريقي كله «فقد حول هذا الرجل جزيرة أرتيجيا Ortygia إلى قلعة حصينة اتخذها مسكنًا له، وسور الطريق الذي يوصلها بأرض القارة، فأصبح مركزه فيها منيعًا»[1] وقد أراد أفلاطون أن يشاهد هذه القلعة الحصينة. لكن الأرجح أن أفلاطون داعبه الأمل في أن تتحول أفكاره النظرية إلى واقع عملي، كما يقول هو نفسه في الرسالة السابعة[2]. ولو تساءلنا من ناحية أخرى لماذا دعا الطاغية أفلاطون؟! لكانت الإجابة على الأرجح، أن الطغاة كانوا على مدار التاريخ، يفاخرون بوجود الفلاسفة والعلماء والشعراء، والأدباء في «بلاطهم». ذلك لأن الطغاة يعرفون بصفة عامة أنهم لن ينالوا الشهرة إلا على يد هؤلاء. فجيلون Gelon طاغية صقلية كان راعيًا للفنون والآداب، كما كان راعيًا للشاعر بندار pindar (518 - 438 ق.م) أعظم الشعراء الغنائيين عند اليونان وكان طاغية أثينا بيزاستراتوس peisistratus[3]، هو الذي أسس احتفالات ديونسيوس التي مهدت الطريق أمام التراجيديا الأثينية - وهو الذي قدم للبشر النص المقنع من «هوميروس» فأصبحت الإنسانية مدينة

(1) ول ديورانت - «قصة الحضارة» مجلد 7 - ص 399.

(2) الرسالة السابعة 328 ب - ص 152 من ترجمة د. عبد الغفار مكاوي، وسوف نعود إلى هذه الفكرة بعد قليل.

(3) راجع قصته في شيء من التفصيل وتشكيله حزبًا ثالثًا، وكيف أقنع «الجمعية الشعبية» بإعطائه حرسًا استطاع بواسطتهم أن ينصب نفسه طاغية، وكيف ارتدت الفتاة فيا Phyia ملابس الإلهة أثينا وأعلنت أنها هي التي نصبته طاغية... الخ، كتاب أندرو «طغاة الإغريق» A. Andrewes: The Greek Tyrants p. 100 - 115

له إلى الأبد. وهكذا يعرف الطغاة أن شـهرتهم تعتمد على الكتاب، والأدباء، والشـعراء، والمؤلفين، ورجال الفكر عمومًا - وهؤلاء على استعداد، في الأعم الأغلب، للقيام بدورهم في حياة الطغاة! لكن إذا ماتوا، أو فقدوا سـلطانهم، انهالوا عليهم بالمعاول بالقوة نفسها التي كانوا يمدحونهم بها، وربما أشد قوة[1] ويسـوق البعض أمثلة هـيرودت وأفلاطون، وأرسـطو[2] مـن تاريخ «طغاة الإغريـق». فماذا كان موقف أفلاطـون على وجه التحديد؟. لبى فيلسـوفنا دعـوة الطاغية، وهنـاك تعرف على «ديـون Dion» ضهر الطاغية، وشـقيق إحـدى زوجتيـه، وكان يبلغ من العمر زهاء اثنين وعشريـن عامًا، بينما كان أفلاطـون في حوالي الأربعين من عمره، ومع ذلك نشـأت بينهما صداقة متينة هي صداقة الأسـتاذ المربي مع تلميذ سـحرته كلمات الفيلسـوف.. ويصف أفلاطون هذه العلاقة في الرسـالة السـابعة كما يلي:

«عندمـا التقيت بديون في ذلك الحين، وكان لا يزال شـابًا صغيرًا، عملـت دون قصد مني على انهيار الطغيـان، وذلك عندما أفضيت إليه بآرائي عن أفضل الأمور البشرية، وحثثته على اتباعها بصورة عملية، فقد تحمس ديون الذي كان بطبعه سريع الفهم، وقرر أن يعيش بقية حياته بطريقة مختلفة»[3].

(1) بل بمجرد الإفلات من قبضتهم كما فعل المتنبي مع كافور الإخشيدي، فجاء هجاؤه أروع بكثير من مديحه لأنه كان أصدق بعد أن تحرر من جبروته! راجع كتاب طه حسين «مع المتنبي» ص 327 وما بعدها ط 9 دار المعارف.

(2) M. Latey: Tyranny p. 173.

(3) أفلاطون: الرسالة السابعة 327 - أ، والترجمة للدكتور عبد الغفار مكاوي في كتابه «المنقذ: قراءة لقلب أفلاطون» ص 130 - كتاب الهلال العدد 440 أغسطس 1987.

وهكذا يصور أفلاطون كيف أثر في ديون الشاب منذ أول لقاء، وكيف استطاع أن يقنعه بقبول مبادئ جديدة جعلت الشاب يغير من طريقة حياته السابقة في صقلية (وهي التي انغمس فيها في الملذات والمؤامرات ...إلخ) وقرر أن يؤثر الخير على اللذة والترف! وكان من نتيجة هذا التحول أن حقدت عليه حاشية ديونسيوس، كما غضب الطاغية على الفيلسوف، فعزم ديون وأصحابه على مساعدة أفلاطون على الرحيل! وهكذا حملته سفينة كانت تقل أيضًا سفير أسبرطة الذي أسر إليه الطاغية: إما أن يقتل أفلاطون في الطريق، أو يبيعه! فأثر الثانية وباعه فعلاً في أيجينا «واشتراه اينقورس القوريناني بثلاثمائة درهم وأعاده إلى أثينا..!».

ب- اللقاء الثاني: الطاغية الابن:

استقر أفلاطون في أثينا بعض الوقت، وكان ذلك عام 387 ق.م، وأسس أقدم جامعة في العالم «الأكاديمية».. إلى أن دعى مرة أخرى إلى الذهاب إلى صقلية عام 367 ق. م فبعد عشرين سنة مات ديونسيوس الأول عام 367 ق. م بعد أن أفرط في الشراب وأصيب بالحمى![1]. وخلفه في الحكم ابنه «ديونسيوس الثاني» الذي كان الأب قد فرض عليه الجهل، والحياة في الظلام، فكان إنسانًا ضعيفًا، عاجزًا عن الاستقلال بنفسه، سهل الانقياد، فتصور ديون أن الفرصة سانحة ليصنع منه الحاكم الفيلسوف الذي كان يحلم به تحت تأثير أفلاطون. ويبدو أنه نجح في إقناع ابن شقيقته بأفكار أفلاطون السياسية، وسرعان ما تحمس لها الملك الشاب ورحب بدعوة أفلاطون الذي استجاب لتوسلات صديقه، بعد تردد، وحضر إلى صقلية

(1) ول ديورانت: قصة الحضارة - مجلد 7 ص 402.

عام 368 لتحقيق حلمه وترويض الطاغية الجديد، الذي لم يكن يحسن به الظن كثيرًا[1].

ولنستمع إلى قصة رحلته الثانية يرويها الفيلسوف بنفسه «ظل الأمر على هذا النحو حتى وفاة ديونسيوس الأول، فداخله (أي ديون) الاعتقاد بأن الآراء التي اكتسبها عن الفلسفة قد لا تقتصر عليه وحده، كما تأكد أنها قد انتقلت بالفعل إلى الآخرين، فكان رأيه أن ديونسيوس الشاب يمكن أن يصبح واحدًا منهم..» [2].

ومن هنا فقد أخذ ديون يلح على أفلاطون في ضرورة الحضور إلى سيراقوصة بأي ثمن!.. «ولقد عقد أكبر الآمال على نجاحه في التأثير في ديونسيوس. وهكذا تمكن من إقناع ديونسيوس أن يرسل في طلبي، كما توسل إلي في رسائله أن أبادر إلى الحضور بغير إبطاء، وذلك قبل أن يقع ديونسيوس تحت تأثير بعض العناصر التي تنفر من الحياة الفاضلة، وتغريه بالتحول عن هذا المثل الأعلى إلى حياة أخرى فاسدة»[3].

ومع ذلك فقد تردد أفلاطون طويلاً في العودة إلى هذه الجزيرة، والعيش في بلاط الطاغية مرة أخرى، «فقد كنت أشعر، من ناحية بالتخوف من الشباب، وعواقب الأمور التي يتصدى لها، وكنت أعرف من ناحية أخرى أن ديون خير بطبيعته..» [4].

(1) د. أحمد فؤاد الأهواني «أفلاطون» ص 18 - 19، نوابغ الفكر الغربي عدد 5 - دار المعارف - بالقاهرة.

(2) الرسالة السابعة 327 ب وجـ - ترجمة د. عبد الغفار مكاوي ص 131 - 132.

(3) الرسالة السابعة 327 ب و جـ - ترجمة د. عبد الغفار مكاوي ص 131 - 132.

(4) المرجع نفسه 328 جـ - ص 132 من الترجمة العربية.

ومع ذلك فقد كانت هناك أسباب تجعل من المحتم على الفيلسوف أن يقوم بالمخاطرة.. «فقد كنت بحاجة إلى إقناع إنسان واحد بآرائي لكي أحقق الخير الذي قصدت إليه..». وكان هناك واقعان آخران حملاه على الإقدام على مغامرة جديدة: «كان الدافع الأساسي هو خوفي من الشعور المخجل من نفسي.. إذ خشيت أن أبدو في عيني مجرد رجل نظري عاجز عن إنجاز فعل واحد..»! ثم «أن أقع في شبه الخيانة لوفاء «ديون»، وكرم ضيافته، وذلك في وقت كان يتعرض فيه لخطر لا يقل عن الخطر الذي يمكن أن أتعرض له..»[1].

هكذا تكون أخلاق الفيلسوف، لكن الطغاة لا خلاق لهم!.. ويستطرد أفلاطون: «.. هكذا غادرت وطني بعد أن شجعتني هذه الأفكار على الإقدام على المخاطرة،.. فتركت عملي في التعليم في الأكاديمية، الذي كان أحب شيء إلى نفسي، وقبلت أن أحيا في بلد يسوده الطغيان الذي لم يكن يبدو أنه يتفق مع آرائي أو يوافق طبعي..» [2].

واستقبل الفيلسوف بالحفاوة والتقدير، ولم تمض ثلاثة أشهر على وجوده حتى بدأت المؤامرات والدسائس من جديد في بلاط الطاغية، وتتلخص كلها في محاولة الدس على ديون عند الطاغية، حتى نجحت الحاشية أخيرًا في الإيقاع بين ديون وابن أخته، وفوجئ أفلاطون بالطاغية ينفي تلميذه وصديقه وخاله (والخال والد كما يقولون!) من الجزيرة على «أبشع صورة» وبطريقة «مخجلة»[3]، فيأمر بوضعه على ظهر سفينة صغيرة، وذلك بتهمة

(1) المرجع نفسه (328 د) - ص 133 من الترجمة العربية.
(2) المرجع نفسه (329 - أ) - ص 134 من الترجمة العربية.
(3) ولعل هذه الصورة هي التي بقيت في ذهن أفلاطون فيما بعد عندما وضع اللمسات=

التآمـر والطمع في الحكم، ويبقى الفيلسـوف وحيدًا فـترة قصيرة يحاول فيها التأثير في الملك الشـاب. لكن الشر الذي استشرى في نفسه، وفي البلاد، كان أقـوى منه. عندئذ يئس الفيلسـوف من إصـلاح الطاغية، وتأكد من فشـل مهمتـه، فاقتنع بضرورة الرحيل، وإن كان الطاغية «.. ألح علي أن أبقى لأن سـمعته مرهونة - فيما زعم - ببقائي..»[1]، ولهـذا «فقد تظاهر بالإلحاف عليّ في الرجـاء، وإن كنا نعلم أن توسـلات الطغـاة تقترن دائمًـا بالتهديد..» [2]. ولمـا كان أفلاطون يخشى أن يدبر لـه الطاغية أمرًا كما فعل أبـوه من قبل، فقـد وعده بالعودة إلى سـيراقوصة حالمًا تتغير الظروف السياسـية.. ووافق الطاغية! «.. وبعد أن وصلنا في النهاية إلى اتفاق بأن يقوم باستدعائنا - ديون وأنـا - مرة أخرى بعد أن تنتهي الحرب الدائرة آنذاك في صقلية بعقد معاهدة سـلام، ويتم له تثبيت حكمه وتدعيمه.. وعلى أسـاس هذه الشروط وعدته بالرجـوع..» [3] وهكذا تمكن أفلاطون، من مغادرة الجزيرة والعودة سـالمًا إلى أثينا.

جـ- اللقاء الثالث:

ولما اسـتتب السـلام أرسـل ديونسـيوس مرة أخرى إلى أفلاطون يدعوه لزيارتـه، ولكنـه طلب مـن ديون أن يؤجل حضوره سـنة أخـرى «.. بينما

= الأخيرة لنظريته عن الطغيان، فذهب إلى أن الطاغية لا يتورع عن ضرب والديه وإهانتهما، فها هو الطاغية ينفي خاله «ديون» من جزيرة سيراقوصه على أبشع صورة وبطريقة مخجلة!.

(1) المرجع السابق 329 - د - ص 135 من الترجمة العربية.

(2) المرجع نفسه.

(3) المرجع نفسه 338 - ب الترجمة العربية ص 152.

أخـذ يلـح عليّ في زيارته إلحاحًا شـديدًا، كذلك حثني ديون على السـفر، إذ أفـادت التقارير العديدة الـواردة من صقلية بأن ديونسـيوس قد تملكته من جديد حماسـة غير عادية للفلسـفة، ولهذا السـبب توسـل إلى ديون أن أقبل الدعـوة. وكنت من ناحيتي أعلم أن الفلسـفة كثيرًا مـا تحدث هذا التأثير في الشباب..»[1]. ومع ذلك فقد رفض أفلاطون تلبية الدعوة متعللاً «.. بأنني قد أصبحت شـيخًا متقدمًا في السـن، وأن ما يجري الآن يتعـارض كل التعارض مـع ما اتفقنا عليـه..»[2]. لكـن الطاغية لم ييأس وعاد يلح على الفيلسـوف مـن جديد، مما يؤكد لنا أهمية وجود رجال الفكر عند الطغاة، يزدانون بهم، ويتباهون بوجودهم على أرضهم!. «أرسـل إلى مركبًـا بحريًا بثلاثة صفوف من المجاديف، لكي ييسر على مشـقة السـفر بقدر الإمكان..»[3]. كما أرسل الطاغية بعضًا من تلاميذ أفلاطون وأصدقائه.

«.. وأخبرنا هؤلاء جميعًا بالخبر نفسه، وهو أن ديونسيوس قد حقق تقدمًا ملحوظًا في الفلسـفة»[4] «كذلك أرسـل إليّ خطابًا مطولاً، إذ كان يعلم مدى حبي لديون، كما كان يعلم مدى لهفته على سـفري وعودتي لسـيراقوصة..» وبدأ الطاغية رسالته بهذه الكلمات: «.. ديونسيوس يحيى أفلاطون»، أو بعد التحية التقليدية قال «إذا لبيت دعوتي، ورجعت إلى صقلية، فسـوف تسوى

(1) المرجع نفسه 338 جـ - الترجمة العربية ص 153.
(2) الرسالة السابعة 338 جـ - الترجمة العربية ص 153.
(3) المرجع نفسه.
(4) قيل إن هذا الطاغية كتب رسالة في الميتافيزيقا أراد أن يميط فيها اللثام عن سمو أفلاطون، انظر كتاب أرنست باركر «النظرية السياسية عند اليونان» ط1 - ص 204.

مسألة ديون على الوجه الذي يرضيك، وأنا متأكد أن مطالبك ستكون معقولة، ولهذا فلن أتردد في الاستجابة لها. أما إذا رفضت فلن يتم أي شأن من شؤونه، وبخاصة شؤونه الشخصية على الصورة التي تحبها..»[1] كما وصل إلى الفيلسوف خطابات أخرى من الأصدقاء: «وكلها تشيد بتقديم ديونسيوس في الفلسفة، وتشير إلى أنني إن لم أحضر على الفور، فسوف أعرض للخطر الشديد علاقات الصداقة التي أقمتها بنفسي بينهم وبين ديونسيوس، وهي في نظرهم علاقات ذات أهمية سياسية قصوى..»[2] وهكذا قام أفلاطون - على مضض - برحلته الثالثة لزيارة الطاغية[3].. «كان قلبي مفعماً بالقلق والهم، ولم يكن لدي.. أي أمل في النجاح.. وعندما وصلت إلى صقلية جعلت مهمتي الأولى هي التحقق من أن ديونسيوس قد تملكه لهيب الحماسة للفلسفة، وذلك كما أفادت الأخبار الكثيرة التي وردت إلى أثينا، أو أنه كان مجرد زعم لا أساس له من الصحة..» [4].

غير أن هذه الزيارة الأخيرة تحولت إلى كارثة، فلم يف ديونسيوس بشيء من وعوده، ولم يدخل في حوار مع الفيلسوف إلا مرة واحدة. ووجد

(1) العبارة تؤكد ما سبق أن ذكره أفلاطون من أن «توسلات الطغاة تقترن دائما بالتهديد»!.

(2) لعلنا نلاحظ قيم الفيلسوف الأخلاقية في مقابل غدر الطاغية وخيانته!!

(3) «لكن كان من واجب الفيلسوف الحق أن يتحملها، من أجل ألا يدع فرصة - وإن كانت ضعيفة تفلت منه من أجل أن يهدي رئيس المدينة للفلسفة الحقيقية» جان جاك شوفالييه «تاريخ الفكر السياسي: من المدينة الدولة إلى الدولة القومية» ص 37 - ترجمة محمد عرب صاصيلا - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت 1985.

(4) الرسالة السابعة 340 - ب - ص 156 من الترجمة العربية.

أفلاطـون نفسـه سـجينًا كالطائـر الحبيس في قفصـه، وتـأزم الموقف حتى تعرضـت حياته للخطر، وحـاصره التهديد بالقتل في كل لحظة، فأرسـل إلى بعـض أصدقائـه يبلغهم بالخطـر الذي يعيش فيـه: «وما هـو إلا أن وجدوا ذريعة لإرسـال بعثة دبلوماسـية من مدينتهم ومعها مركـب بثلاثين مجدافًا.. وتشـفعوا لي عند ديونسـيوس، وأبلغوه برغبتي في الرحيـل، ورجوه ألا يقف عقبة في طريقي.. فوافق على أن أغادر البلاد مع المال اللازم للسفر..» [1].

د- خاتمة المطاف:

كانت هذه خاتمة ثلاث رحلات حاول فيها الفيلسوف أن يحقق أحلامه الفلسـفية، وأن يبعد عن نفسـه تهمة المفكر الحـالم، أو الصوفي الهارب من دنيا الواقع إلى عالم مثالي «يوتوبي» لا يعلم أحد أين يوجد.. لكنه فشل! فما الذي يمكن أن نستخلصه منها..؟.

1- عـرف أفلاطون عن كثـب كيف يعيـش الطغاة، ومـا ينفقون على أنفسـهم وعلى حاشـيتهم، وملذاتهـم، ومقدار البذخ - بل السـفه في الإنفـاق - ولا حسـيب ولا رقيـب!، وهـو يسـتطيع أن يفـرض من الضرائـب وأن يجمـع من المال ما يشـاء! حتى إن ديونسـيوس الأب جمع ذهب النسـاء وحليهن بحجة أن هذا أمـر الإله! «فلما أسرفت نسـاء المدينـة في زينتهن أعلـن أن دمتر قد جاءتـه في الحلم، وأمرته أن يجمع حلي النسـاء كلها ويودعها في معبدهـا. وصدع الملك بأمر الإلهـة، وصدعـت به كذلـك معظم النسـاء، ثم ما لبـث أن اقترض

---

(1) الرسالة السابعة 350 - أ - جـ - ص 178 من الترجمة العربية.

الحلي من دمتر ليمول بها حروبه»[1]. وقد سرق ديونسيوس الأول الرداء الذهبي أيضًا الذي كان يغطي تمثال الإله زيوس Zeus زاعمًا أن الجو في الشتاء يكون باردًا على نحو لا يطاق، وفي الصيف حارًا على نحو لا يطاق! وفي الحالين فإن الرداء يكون عديم النفع!، كما سرق كذلك الرداء الذي كان يغطي تمثال الإلهة هيرا Hera وباعه للقرطاجنيين![2].

2- اطلع أفلاطون بنفسه على الحراسة المشددة التي يعيش فيها الطاغية وكيف أنه يستطيع أن يعتقل من يشاء في أي وقت!. فديونسيوس الثاني «أسكنه في البرج وحال دون سفره» ولم يكن في استطاعته أن يخرج من البرج إلا بإذن صريح من الطاغية!.

3- خبر بنفسه الظلام الدامس الذي يعيش فيه الطاغية، وحيث تنعدم الحرية يكثر الوشاة والمرجفون، وتحاك الدسائس والمؤامرات.. إلخ، حتى إن الطاغية نفسه يعيش في شك وريبة من جميع المحيطين به، فيبث عيونه في كل مكان لكي تنقل له حركات الناس وسكناتهم[3].

4- ليس للطاغية قيم أخلاقية يحافظ عليها، فلا وفاء بوعد، ولا أصدقاء، ولا كلمة شرف، فها هو ينفي خاله «ديون» متهمًا إياه

(1) ول ديورانت «قصة الحضارة» مجلد 7 ص 400.

(2) M. Latey: Tyranny p. 213.

(3) عندما نقرأ حديثًا «هذه هي بلاد الخوف وأرض الرعب والاستهانة بالإنسان، وكل القيم التي عرفتها الحياة... إلخ» قارن السفاح ص 6 - الزهراء للإعلام العربي بالقاهرة - فكأننا نقرأ ما يقوله أفلاطون قديمًا عن سيراقوصه!!

بالتآمر، ثم يسجن أفلاطون في برج لا يبرحه إلا بإذن صريح منه! وهكذا تبين أن الطغيان تدمير لقيم الإنسان الأخلاقية، وليس السياسية فحسب.

5- لم يتورع ديونسيوس الأب عن محاولة اغتيال أفلاطون، فليس ثمة «مفكر كبير» أمام الطاغية - حتى ولو كان أفلاطون نفسه. وكادت الفلسفة أن تخسر منارة لها في العالم القديم، لولا أن القدر ألهم سفير أسبرطة بالحل الثاني فباع الفيلسوف كما يباع الرقيق! كما أعد شخصًا آخر من تلاميذه ليشتريه ويعتقه!.

6- شيوع النفاق والتملق سواء من جانب الحاشية للطاغية أو من جانب الطاغية نفسه لمن يريد منهم قضاء حاجة. وفي الحالتين نجد دليلًا جديدًا على انهيار الأخلاق في عهد الطاغية! فديونسيوس يحاول بالهدايا وأسباب التكريم المختلفة «يقنعني بالشهادة أمام الرأي العام بأنه كان على حق عندما نفى ديون» (333 د - ص 143).

7- وأخيرًا فإننا نستطيع أن نقول مع أفلاطون إن أسوأ ما يوجد على الأرض هو الطاغية سواء أكان فردًا أم جماعة من الغوغاء[1]. وفي استطاعتنا أن نعرف الطاغية - كما فعل أفلاطون - فنقول إنه مثل كل شر «سلب»، فالحاكم الطاغية «سلب للحاكم الخير»، كما

(1) على الرغم من أنه يمكن أن نتحدث عن «طغيان الأغلبية» - وسوف نعود إليه فيما بعد - أو طغيان أي جماعة حاكمة أخرى، فإن مصطلح الطاغية يطلق في العادة على الحالات التي يسيء فيها حاكم فرد واحد استخدام السلطة السياسية.
انظر: The Encyclopedia Americana Vol. 27 (art Tyranny p. 330)

أن الدائـرة هي سـلب للدائرة الصحيحة، والسفسـطائي هو سـلب للفيلسوف الحق، كما أن المرض هو سلب للصحة»[1].

أمـا إلحاح الطاغيـة وحرصه على زيـارة أفلاطون ثم تمسـكه ببقائه في الجزيرة وعدم السـماح له بالرحيل[2]، فينطبق عليـه تمامًا موقف المتنبي من كافـور الإخشـيدي الذي منعه هـو الآخر من الرحيل ليفاخـر بمقامه عنده وهو ما كان يعنيه المتنبي بقوله:

جوعـانُ يأكل زادي ويُمسـكني لكي يقـال عظيم القَـدَرِ مقصودُ

ثانيا: تصنيف الدساتير

قصة أفلاطون مع الطاغية التي عرضناها فيما سبق، تكشف عن أمرين مهمين:

الأول: اهتـمام أفلاطـون الشـديد بالسياسـة، والتطبيقـات السياسـية، وإصراره على أن يمحو من نفسه فكرة أنه «مجرد رجل نظري عاجز عن إنجاز فعـل واحـد» على حد تعبـيره. أما الأمر الثـاني فهو الخـبرة العملية لأفلاطون بالنظام السـياسي عمومًا، وبأسـوأ أنواع النظم وأكثرها فسـادًا بوجه خاص، فهو يـأكل، ويشرب، ويعيش مـع الطاغية، ويراه وهو يفكـر، وهو يتآمر،

(1) المنقذ: قراءة لقلب أفلاطون - ص 29 للدكتور عبد الغفار مكاوي (ترجمة للرسالة السابعة مع مقدمة ودراسة - كتاب الهلال - العدد 440 أغسطس 1987).

(2) لم يكتف بعض الطغاة بمفكر أو فيلسوف، لكنه أراد أن يقيم مدينة للعباقرة، وآخر يخصص جائزة باسمه في الشعر والأدب والفكر عمومًا لأنه ديونسيوس الجديد راعي الثقافة والفنون والآدب!!

وهو يغدق في سفه حيث لا يجب الإسراف، ويقتر في جوانب أخرى، ويبث العيون من حوله.. إلخ. باختصار يراه رأى العين أكثر من أي فيلسوف آخر.

والواقع أن أفلاطون كان يتوق للاشتغال بالسياسة كما يخبرنا في بداية الرسالة السابعة، وقد فرضت عليه الأحداث التي ألمت ببلاده الاشتغال بها، فهو يشهد في سن الثالثة والعشرين استسلام أثينا عام 404 ق. م لعدوتها اللدود إسبرطة بعد حرب طاحنة، كما بهرته التنظيمات العسكرية لإسبرطة، وازداد إعجابه بها بعد انتصارها على أثينا في حرب البلبونيز[1]. كما أنه عاصر حكم الطغاة الثلاثين الذي أقامته إسبرطة في أثينا بعد انتصارها، وكان كريتياس - ابن عم أمه - واحدًا منهم! كما شهد أفلاطون سقوط هذا الحكم نفسه بعد عام واحد من قيامه (سبتمبر 403 ق. م) ليحل محله نظام الحكم الديمقراطي الذي حكم بموت أستاذه سقراط، وهكذا عاش أفلاطون وسط أخطر القلاقل السياسية في بلاده، كما أنه خبر بنفسه كثرة من النظم السياسية التي عاصرها ورفضها جميعًا. يقول:

«لقد أنعمت النظر في معترك الحياة السياسية.. وانتهى بي المطاف أن أتبين بوضوح، أن جميع أنظمة الحكم الموجودة الآن، وبلا استثناء أنظمة فاسدة، فدساتيرها لا يمكن إصلاحها جميعًا إلا مبعجزة. ولقد استفحل فساد التشريع، والأخلاق العامة، بصورة مخيفة، بحيث أصابني الدوار في النهاية أمام هذا الاضطراب الساممل، وأنا الذي كنت في النهاية مفعم النفس بالحماسة للحياة السياسية»[2].

(1) إمام عبد الفتاح إمام «أفلاطون... والمرأة» ص 35 وما بعدها - حوليات كلية الآداب - الحولية الثانية عشر 91 / 1992 - جامعة الكويت.

(2) الرسالة السابعة 325 د و 326 ب (الترجمة العربية ص 128) وقارن أيضًا: جان جاك=

ولقد كان من الطبيعي أن يقوم أفلاطون بعد هذه التجارب كلها. لاسيما محاكمة سقراط و إعدامه، ثم فشله هو مع طاغية سيراقوصة، بطرح ما كان يطمح إليه من «عمل سياسي»، ليتأمل بثاقب فكره هذه النظم التي جعلها في دورة، كل نظام يؤدي إلى الآخر، و ينتهي بأسوأ النظم جميعًا وأشدها فسادًا ألا وهو الطغيان، فكيف صنف فيلسوفنا هذه النظم..؟!

يرى أفلاطون أن النظم السياسية كلها يمكن أن تنحصر في خمسة أشكال أساسية هي على النحو التالي:

1- **النظام الأرستقراطي** Aristocracy[1]:

هو أفضل أنواع الحكم عند أفلاطون، وهو حكم القِلة الفاضلة، و يتجه نحو الخير مباشرة، ومن ثم فهو نظام الحكم العادل.

2- **الحكم التيمقراطي** Timocracy[2]:

وهو الحكم الذي يسوده طابع الطموح من محبي الشرف، أو الطامحين إلى المجد، الذين تكون وجهتهم، السمو، والتفوق، والغلبة.

= شوفالييه «تاريخ الفكر السياسي» ص 37 - ترجمة د. محمد عرب صاصيلا - المؤسسة الجامعية للدراسات - بيروت.

(1) لفظ يوناني مؤلف من مقطعين هما Aristos أي الأفضل والأحسن و Kratia أي حكم، فهو حكم القلة الفاضلة.

(2) مؤلفه من مقطعين يونانيين هما Time يعني الشرف أو المجد و Krati أي حكم، فهو حكم المتطلعين إلى الشرف أو الطموحين إلى المجد.

3- **الحكم الأوليجاركي** Oligarchy[1]:

وهي حكومة القِلة الغنية، حيث يكون للثروة مكانة رفيعة.

4- **الديمقراطية** Democracy[2]:

التي هي حكم الشعب حيث تقدر الحرية تقديرًا عاليًا.

5- **حكومة الطغيان** Tyranny:

وهي حكومة الفرد الظالم، أو الحاكم الجائر، حيث يسود الظلم الكامل بغير خجل أو حياء.

وهـذا الترتيب التنازلي للحكومة، يقابـل الترتيب التنازلي للعصور التي عاشها الإنسـان، كما يرويها الشـاعر «هزيود Hesiod» في كتابه الأعمال والأيام[3]، والتي تسير على النحو التالي:

(أ) العصر الذهبي وهو أزهى العصور، ويقابل الحكم الأرسـتقراطي أعلى أنواع الحكم عند أفلاطون.

(ب) ويليه العصر الفضي وهو يقابل الحكم التيمقراطي.

---

(1) مؤلفة من مقطعين يونانيين هما Oligos قلة غنية و Kratia أي حكم، فهي حكومة القلة الغنية التي تعمل لصالحها الخاص.

(2) مؤلفة من مقطعين Demos شعب و Kratia أي حكم: فهي حكم الشعب، لكن أفلاطون يفهمها على أنها تعني حكم الجماهير أو الغوغاء.

(3) قارن دراسة ليون شتراوس عن أفلاطون في كتاب - History of political philos .ophy p. 61

(ج) ثم العصر البرونزي أو النحاسي، ويقابل حكم الأوليجاركية.

(د) عصر الأبطال الذي يماثل الحكم الديمقراطي. العصر الحديدي الذي انحطت فيه نفوس الناس وهو يشبه حكم الطغيان[1].

ويذهب أفلاطون في محاورة «الجمهورية» إلى أنه يوجد من أنواع النفوس، بقدر ما يوجد من أنواع متميزة من الحكومات.. أو قل إن للحكومات أنواعًا خمسة، وللنفوس بدورها أنواع خمسة..[2] إذ يعتقد سقراط أن هناك خمسة أنواع من الحكم، يماثلها خمس شخصيات من البشر، فالرجل الطموح إلى المجد يقابل الحكم الثيمقراطي، والتمييز الذي ظل سائدًا في علم السياسة بين الشخصية السلطوية والشخصية الديمقراطية يقابل المجتمعات المتسلطة والمجتمعات الديمقراطية، كذلك يقابل سقراط بين النفس الملكية أو الأرستقراطية أو التيمقراطية أو نفسية الطاغية... إلخ، وبين أنظمة الحكم المماثلة[3].

«ولهذا يجدر بمن يريد دراسة شخصيات الرجال أن يدرس الدول التي ينتمون إليها، لأن جميع نظم الإنسان لا تعدو أن تكون تعبيرات عن نشاطه العقلي، فنظمه هي آراؤه،

(1) يروي هزيود أن الإله بروميثيوس خلق الرجل وعاش وحيدًا في جنة دانية القطوف، فكان العصر الذهبي، ثم بعد أن سرق النار وأعطاها للرجل خلق زيوس الفصول الأربعة فلم يعد الزمان ربيعًا دائمًا، فانتقل الرجل إلى العصر الفضي، لكن عندما خلقت المرأة بدأ العصر النحاسي بما جلبته معها من أمراض وآفات، ثم كثرت المصائب فانتقل إلى العصر الحديدي حيث تغلغلت الخطيئة. راجع بحثنا «أفلاطون.. والمرأة» ص 22.

(2) أفلاطون «الجمهورية» 445 د - ص 331 من ترجمة الدكتور فؤاد زكريا.

(3) Leo Strauss: History of Political philosophy p. 61.

والقانــون هو جزء من تفكيره، والعدالة هــي عادة من عاداته العقلية»[1].

اهتم أفلاطون بدراسة هذه النظم التي سادت عصره، ووجدها تنهار الواحدة بعد الأخرى، فحاول أن يضع نظامًا لتعاقبها، كيف ينتقل الواحد منها إلى الآخر، والنــوع الأول هو وحده نوع الحكم الصالح الخير حيث تحكم النخبة الفاضلة، ويتربع الحاكم الفيلســوف الذي وقف على الفضيلة، والعدالة، والمساواة... إلخ كاملة في عالم المثل. أما بقية الأنواع الأربعة فهي فاسدة، ويهمنا هنا أن نتوقف قليلاً عند شــكل الحكم الديمقراطي الذي سيظهر منه الطغيان، لكن قبل ذلك لا بد أن نسأل كيف تنشأ الديمقراطية؟! وكيف تنهار؟!

أ- النظام الأوليجاركي:

تنشأ الديمقراطية من النظام الأوليجاركي، فهو أول نظام تظهر فيه الرغبة عارمة في الثراء، واقتناء الماء بغير حد، ذلك لأن النظام الأوليجاركي هو نظام من الحكم يقوم على الثروة، ويحكم فيه الأغنياء دون أن يشاركهم الفقراء في الســلطة. وهم في سعيهم إلى المزيد من الثروة يقل تقديرهم للفضيلة بقدر ما يزداد تقديرهم للمال، لأن الثروة والفضيلة لا يجتمعان.

«.. إذ بينهــما ذلك الفــارق الذي يجعل كفــة إحداهما تنخفض كلما ارتفعت الأخــرى إذا وضعتا على كفتي ميزان، فــإذا كرمت الثروة والأثرياء في دولة ما، قل تكريم الفضيلة والفضلاء فيها حتمًا»[2].

(1) Ibid p. 62.

(2) أفلاطون «الجمهورية» 550، الترجمة العربية ص 465 - 466. وقارن بحثنا «أفلاطن.. والمرأة» ص 57 وما بعدها.

وهكـذا تسري بين المواطنين نغمة احترام المال، فيتملقون الرجل الثري ويعجبوه بـه، ويصعدون به إلى منصة الحكم، بينما نراهم يحتقرون الفقير، وهكذا يصبح المجتمع جشعًا إلى المال والربح! بل إن الأمر ليصل إلى حد أن تقوم الدولة بوضع قانون يحدد شروط الامتياز في الأوليجاركية بحد معين من الثروة يزداد كلما كانت الأوليجاركية قوية، وينخفض كلما كانت ضعيفة. وهكذا يحرم من أدوار المهام العامة كل من لا تسمح لهم ثروتهم ببلوغ هذا الحد المعلوم»[1]. ويعتقد أفلاطون أن اختيار الحكام على أساس ثرائهم مبدأ معيـب في ذاتـه، وإلا فلك أن تتخيل ماذا يحدث لو أننـا طبقناه مثلاً في قيادة السـفينة؟! فقلنا إن ربان السفينة لا بد أن يُختار على أساس ما لديه من ثراء، ويسـتبعد الفقراء على الرغم مما قـد يكون لديهم من تفوق في هذا المضمار؟ لاشك أن الرحلة ستنتهي عندئذ إلى كارثة.

تلك نقيصة بارزة في الحكم الأوليجاركي، لكنها ليسـت الوحيدة، فهناك نقيصة أخرى لا تقل عنها أهمية، وهي أن الدولة تفقد وحدتها، وتغدو دولتين لا دولـة واحـدة: دولة الأغنيـاء ثم دولة الفقـراء. وهما دولتان تعيشـان على الأرض نفسها، وتتآمر كل منهما على الأخرى بلا انقطاع[2].

نقيصة ثالثة هي أن هذه الدولة سـتكون عاجزة عن شن أية حرب، ذلك لأنها مضطرة إلى تسـليح الشـعب، لكنها عندئذ ستخشـاه أكثر مما تخـشى الأعداء، فجمهور الشـعب فقير، والسـلاح معه خطـير!، لكنها من ناحية أخرى إذا لم تسـلحه فسـوف يجد أفراد هـذا النظام أنهم قلة

---

(1) الجمهورية 551 (الترجمة ص 466).

(2) Leo Strauss: History of political Philosophy p. 63 & City. And Man p. 130.

(أوليجاركيـون) في المعركـة، فضـلاً عـن أن تقتيرهم يحـول بينهم وبين الإنفاق على الحرب.

ولمـا كانـت الغالبيـة العظمى من أفراد الشـعب في هذا النظـام فقراء، فسـوف يوجد فيها متسـولون، وإلى جوارهم لصوص، ونشـالون، وسـارقو معابـد وأشرار من كل نـوع، ولا بد أن نعزو وجود هؤلاء الأشرار إلى الجهل وسوء التربية، وإلى نوع الحكومة الفاسدة.

والحاكـم في الدولة الأوليجاركية هو نفسـه رجلان في رجل واحد، كما أن دولتـه دولتان في دولة واحـدة، وصفة البخل الغالبـة عليه هي خليط من التزمـت والطمع، ولا مناص مـن حدوث صدام بين الاثنين رغم ما بينهما من اتحاد مؤقت[1].

ب- الانتقال إلى الديمقراطية:

إن الثروة التي تهالك عليها النظام الأوليجاركي هي التي تتسبب في هدمه وتدمـيره، وذلك لأن أبناء الموسرين، والأغنيـاء، والنبلاء، يألفون الإسراف والإنفاق على الملذات. ويصعب جدًّا في أية دولة تمجد الثروة أن يتسم شبابها بالاعتـدال وضبـط النفس. وهكذا يدفـع الحكام بغفلتهـم، وبتركهم الحبل عـلى الغارب لـلإسراف، رجالاً صالحين إلى الفقر والعـوز، ويظل الحقد يملأ نفوسـهم فيتآمـرون على أولئك الـذي اقتنوا ثرواتهم، وعـلى بقية المواطنين،

(1) أرنست باركر «النظرية السياسية عند اليونان» الجزء الثاني ص 136 - 137، وهو يرى أن صورة الرجل الأوليجاركي التي رسمها أفلاطون هي الصورة التي يتندر بها الساخرون عن الأخلاق الإنجليزية الآن.

وتهفو نفوسهم إلى الثروة. فالمجتمع الذي انقسم إلى دولتين: أغنياء وفقراء. تأخذ فيه رقعة الفقراء في الاتساع لإسراف الأغنياء، ويزدادون حقدًا على كل من يملك الثروة، في الوقت الذي يضعف فيه من تبقى من الأغنياء الذين أسلمهم الترف إلى الرخاوة، وأوهن البذخ من عزائمهم! ويصف أفلاطون انقسام المجتمع في الدولة الأوليجاركية وصفًا رائعًا فيقول:

«إذا حدث في مثل هذه الظروف أن تقابل الحكام والمحكومون في صعيد واحد في معركة برية، مثلاًن فإن الفرصة تتاح لهم عندئذ أن يرقب بعضهم البعض وهم في لحظة الخطر. وعندئذ لن يستطيع الأغنياء أن يحتقروا الفقراء، بل إن الذي يحدث في أغلب الأحيان يقف فقير هزيل لفحته الشمس المحرقة في ساحة الوغي إلى جانب غنى ترعرع في الظلال الوارفة، وتراكم على جسده الشحم الزائد، فلهثت أنفاسه، وبدت عليه مظاهر العجز، فلا بد أنه قائل لنفسه إن هؤلاء الناس لم يصبحوا أثرياء إلا لأن الفقراء جبناء، فإذا اجتمع الفقراء معًا في خفية عن أعين الباقين، فسوف يقولون لأنفسهم دون شك،إن هؤلاء الناس لا يصلحون لشيء. بل إنهم جميعًا تحت رحمتنا!»[1].

وتظهر الديمقراطية عندما ينتصر الفقراء على أعدائهم، فيقتلون بعضهم وينفون البعض الآخر، ويقتسمون أمور الحكومة والرئاسة بالتساوي، بل إن الحكام في هذا النوع من الدول غالبًا ما يختارون بالقرعة.

(1) الجمهورية 556، الترجمة العربية ص 474 - 475.

ويصبح كل فرد في مثل هـذه الدولة حرًّا، بل إن الحرية تسـود الجميع، وحينما تسـود الحرية يكون في وسـع كل شـخص أن ينظم طريقته في الحياة كيفما يشاء. ولما كانت هذه الدولة تشتمل، بفضل ما فيها من حرية، على جميع أنواع الدساتير، فإن المرء يمكن أن يتوجه إليها ليختار منها النظام الذي يروقه، فهي سوق للدساتير يتسنى للمرء فيه أن ينتقي النموذج الذي يفضله![1].

وهكـذا يصـف أفلاطون الدولـة الديمقراطيـة: «بالتهاون والتسـاهل المفـرط الذي يـؤدي إلى حالة «رائعـة» من الفوضى! ومظاهـر التنوع تقوم على المسـاواة بين الناس «المتساوين وغير المتساوين معًا»، حتى يغدو العبد مسـاويًا للمواطن، والمواطن مسـاويًا للعبد، والأجنبي الدخيل مساويًا لهما معًـا! بـل إنك لتجد الأسـتاذ في مثل هـذه الدولة يخشى التلاميـذ ويتملقهم! ويسـخر التلاميـذ من أسـتاذهم، ومن المشرفـين عليهم، وعـلى الإجمال فإن الصغار يقفون على قدم المسـاواة مع الكبار، وينازعونهم الأقوال والأفعال. أمـا الكبار - رغبـة منهم في إرضاء الصغار - فيشـاركونهم لهوهم، ومرحهم، ويقلدونهم حتى لا يظهروا بمظهر التسلط والاستبداد!.

وينبهنا إرنسـت باركر E. Barker إلى أن ما يصفه أفلاطون تحت اسـم الديمقراطيـة هو ما يصح أن نلقبه نحن باسـم «الفوضويـة Anarchism» - فوضوية الشاعر شللي التي يكون الإنسان فيها[2]:

(1) هي نفسها الفكرة التي عبر عنها في القرن السابع عشر جاك بوسيه (1627 - 1704) Jaques Bossuet بقوله «عندما يستطيع الكل فعل ما يشاءون فإن ذلك يعني إلا أحد يستطيع فعل ما يشاء، وعندما لا يكون هناك سيد فإن الكل سيد، وحيث الكل سيد فالكل عبيد!».

(2) غياب هذه الفكرة في فهم الديمقراطية التي يتحدث عنها أفلاطون على أنها الفوضوية،=

«حرًّا لا يقيده قيد، ولا يخضع لسيد،

بل يكون إنسانًا يتمتع بالمساواة،

ولا ينتمي إلى طبقة، أو قبيلة أو أمة،

متحررًا من الخوف والعبادة، والمركز الاجتماعي،

ويكون صاحب العرش على نفسه..»

فهذا الذي يصفه أفلاطون لا ينطبق على ما كانت تعنيه الديمقراطية المباشرة في اليونان قديمًا أو ما تعنيه الديمقراطية النيابية اليوم، وبما أن أفلاطون يسوي بين الديمقراطية والفوضى فإنه على هذا الاعتبار يدين مبدأيهما الأساسيين وهما، الحرية والمساواة، ولا يرى أنهما مبادئ على الإطلاق[1].

جـ- الانتقال إلى الطغيان:

حتى الديمقراطية تدمر نفسها بنفسها عندما تصل إلى حدها الأقصى فتنقلب إلى فوضى، وبدلًا من أن يحكم الشعب نفسه بنفسه[2]، نرى حكم

= قد جعل بعض الباحثين يرفضون ظهور الطاغية من المرحلة الديمقراطية «القول بأن الاستبدادية تنبثق عن الديمقراطية، وأن المستبد قد جاء به الشعب، هو تحريف للواقع الملحوظ بنقل البحث إلى مجال التجريد» جان تشوار - تاريخ الفكر السياسي - ص 32. ترجمة د. علي مقلد - الدار العالمية للطباعة والنشر - بيروت 1983.

(1) أرنست باركر «النظرية السياسية عند اليونان» الجزء الثاني ص 141 - 142.

(2) في هذه الأوقات العصيبة التي تنهار فيها تقاليد الحكم القديمة، وفي مثل هذا الجزء من «اللاشرعية» ينفتح الطريق إلى التطور إما نحو الديمقراطية الحقة أو الديكتاتورية على نحو ما حدث في مصر قبل الثورة مباشرة، أي في أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات. «وبذلك تنشأ الديكتاتورية أو نظم الطغيان عمومًا في الأحوال=

الجماهير أو الغوغاء الذي هو بحر هائج يتعذر على سفينة الدولة السير فيه، لأن كل ريح من خطابة أو شعوذة من جانب الخطباء تحرك المياه وتعطل طريق السير. وتكون النتيجة أن يقفز الطاغية إلى كرسي الحكم لكي ينقذ البلاد من الفوضى.

وهكذا تنشأ الحكومة الاستبدادية - فيما يرى أفلاطون - بطريقة طبيعية من الحكومة الديمقراطية المسرفة في حريتها لحد الفوضى - أي أن التطرف في الحرية يولد أفظع أنواع الطغيان، ويظهر وسط هذه الفوضى من يؤيده الناس قائدًا عليهم ونصيرًا لهم، ويضفي عليه الشعب قوة متزايدة، وسلطانًا هائلاً، وفي كل مرة يظهر فيها طاغية، يكون الأصل الذي يظهر منه هو هذا النصير، فكيف يبدأ نصير الشعب في التحول إلى الطاغية؟!

ثالثًا: الطاغية.. الذئب!

يبدو أن أفلاطون كان على حق عندما ذهب إلى أن ظهور الطاغية مرهون بوجود ضرب من الفوضى أو التسيب في الدولة، بحيث يكون هو «المنقذ» الذي يعيد النظام، والأمن، والاستقرار إلى البلاد حتى يشعر كل مواطن أنه آمن على نفسه، وأهله، وماله... إلخ. يقول أندروز في كتابه عن «طغاة الإغريق» إنهم كانوا يظهرون في فترات الأزمات[1]:

=التي تهيئ الحكم للديمقراطية، ذلك لأن التحول نحو هذه الأنظمة الديكتاتورية قد يكون سطحيًا، فيتغير مركز السلطة دون أن يتغير شكل الحكم، ويحدث هذا التغير بانقلاب أو ثورة داخل قصر الملك، أو بتبديل عائلة بعائلة أخرى» روبرت ماكيفر «تكوين الدولة» ص 278 - 279، ترجمة د. حسن صعب - دار العلم للملايين 1984.

(1) قارن ما يقوله موريس دوفرجيه «يؤدي اضطراب الكيان الاجتماعي إلى ظهور=

«بحيث يكون المبرر العام الشائع الذي يسوغون به الطغيان - وهو نفسه تبرير الديكتاتورية الآن - هو قدرة الطاغية أو الديكتاتورية على النهوض بحكومة فعالة، بعد أن أصبح جهاز الدولة عاجزًا عن مواجهة الأزمات التي تظهر بسبب ضغوط خارجية أو توترات داخلية[1]. ومن ثم كان الأمل ينعقد على ظهور حاكم قوي، يعيد النظام والاستقرار إلى المدينة اليونانية، هو: الطاغية[2]، وإن كان أندروز نفسه يستطرد ليقول: «عندما كانت الحاجة تدعو إلى وجود طاغية، فإنه عندما يحكم كان يذهب في حكمه أبعد من الأزمة التي جاء ليعالجها، فالضرورة العامة شيء يتحد مع الطموح الشخصي، ولا يمكن الفصل بينهما بوضوح، فضلاً عن أنه ليس من السهل على الحاكم المطلق أن يتقاعد!» [3].

= الحكم الديكتاتوري وذلك عقب الحرب مثلاً، أو خلال أو بعد الأزمات الاقتصادية أو أزمات متصلة بالتركيب الاجتماعي أو متعلقة بالنظام القائم» ص 34 في الديكتاتورية، ترجمة د. هشام متولي - منشورات عويدات - بيروت 1989.

(1) قارن البيان الأول الذي أصدرته حركة الانقلاب العسكري في مصر (23 يوليو 1952) والذي يتحدث عن الفساد الذي سرى واستشرى في البلاد، وكيف عجزت الحكومات آنذاك عن مواجهته، وكيف أنهم هم وحدهم القادرون على إصلاحه.

(2) A. Andrewes: The Greek Tyrants p. 7.

(3) المرجع السابق، وقد كتب أستاذنا الدكتور فؤاد زكريا بمناسبة الانقلاب الذي أطاح برئيس تونس السابق «الحبيب بورقيبة» مقالًا طريفًا في جريدة «الوطن» الكويتية يدعو فيه الحكام العرب إلى تقليد لاعبي الكرة الذين يعتزلون في سن معينة بدلًا من الإطاحة بهم في سن متأخرة!! لكن للأسف لم يثبت ذلك في أي فترة من فترات تاريخنا القديم أو الحديث الذي حكم فيه الطغاة عن طريق الانقلابات العسكرية، ولك أن=

وفضلاً عن ذلك فإن الصورة التي رسـمها أفلاطون للطاغية مأخوذة من سـيرة ديونسـيوس الأول في سـيراقوصة، حيث جاء هذا الطاغية في أعقاب الديمقراطيـة أو بعبـارة أدق نتيجـة للاضطرابات التي حدثـت في الجزيرة، وأدت إلى ما يشـبه الفوضى، ومن هنا نجد أفلاطون في إحدى فقرات محاورة «الجمهورية» يشـير إشـارة واضحـة إلى تجربته الخاصة في سـيراقوصة عام 387 ق. م. ويلاحـظ «أرنسـت باركر» أنه يكاد يخـرج من نطاق المحاورة ويتحدث بلسـانه الشـخصي، ويرجـو سـامعيه أن يفهمـوا أن حكمه على الطاغيـة هو حكم رجـل «في مقدرته الحكم»، عاش مـع الطاغية في مكان واحد، ولمس حياته اليومية، وعرف كل شيء عن علاقاته العائلية[1].

يتولى الطاغية الحكم، في الأصل، لكي ينقذ البلاد من حالة الفوضى التي تتردى فيها، ويبدأ في الأيام الأولى من حكمه في التقرب من الناس:

> «في مبـدأ الأمر لا يلقى كل مـن يصادفه إلا بالابتسـام والتحية، ويسـتنكر كل طغيان، ويجزل الوعود الخاصـة والعامة، ويعفى من الديون، ويوزع الأرض على الشـعب وعلى مؤيديه، ويتصنع الطيبـة والـود مع الجميـع»[2]. وفي الوقـت ذاته يبـدأ في تكوين حرس قوي حوله بحجة المحافظة على مطالب الشـعب، ومراعاة لمصلحة الشعب ذاته»[3].

= تقارن مثلاً تاريخ الخلفاء الذي رواه جلال الدين السيوطي، أو البداية والنهاية لابن كثير!!

(1) أرنست باركر: «النظرية السياسية عند اليونان» الجزء الثاني ص 131.

(2) أفلاطون «الجمهورية» 567 ترجمة الدكتور فؤاد زكريا ص 491.

(3) ما يذكره أفلاطون يدعمه أمران في بلادنا، الأول: تحول الجيش إلى حرس جمهوري=

وبعد تكوين الحرس الجيد الذي يلتف حوله لحمايته، يبدأ في تأمين وجوده في الداخل والخارج، فبالنسبة لأعداء البلاد في الخارج فإنه يتفاوض مع بعضهم، ويقاتل البعض الآخر حتى يتخلص منهم بشتى الطرق. ثم يتجه إلى الداخل فيتخلص من المناوئين له:

«وعندما يأمن هذا الجانب فإنه لا يكف أولًا عن إشعال الحرب تلو الأخرى حتى يشعر الشعب بحاجته إلى قائد، وكذلك حتى يضطر المواطنون الذين أفقرتهم الضرائب إلى الانشغال بكسب رزقهم اليومي بدلًا من أن يتآمروا عليه!» [1] وعندما يجد «زعيم الشعب» نفسه سيدًا مطاعًا، فإنه لا يجد غضاضة في سفك دماء أهله، فهو يسوقهم إلى المحاكمة بتهم باطلة، وهي طريقة مألوفة لدى هذه الفئة من الناس. إنه يحتقر القوانين المكتوبة وغير المكتوبة، ولما لم يكن شيء يقف في وجه الطاغية المستبد فإنه يصبح عبد الجنون أو ينقلب حكمه إلى كارثة[2] فهو يقتل المواطنين ظلماً وعدوانًا،

= يحمي كرسي الحاكم. والثاني: اعتبار أي نقد يوجه للحاكم شخصيًا نقدًا يوجه للبلاد كلها، وللشعب ذاته!، وبالتالي فأي تآمر عليه هو ضد «مصلحة الشعب» لا ضد مصلحته هو!!.

(1) الجمهورية 567 - جـ (الترجمة العربية ص 491)، هذا أمر في غاية الوضوح في معظم الدول العربية التي يدخل بعضها في حرب تلو الأخرى دونما نتيجة (كما فعل صدام في حرب السنوات الثماني مع إيران، ثم في غزوه للكويت - وكما فعلت مصر في الدخول في مغامرات لا معنى لها في إفريقيا، وفي اليمن، كما كانت لحروبها مع إسرائيل نتيجة بشعة!!).

(2) جان توشار «تاريخ الفكر السياسي» ص 31، ترجمة د. علي مقلد - الدار العالمية للطباعة والنشر - بيروت 1983.

ويذوق بلسان وفم دنسين دماء أهله ويشردهم.. عندئذ يصبح هذا الرجل طاغية ويتحول إلى ذئب..»[1].

ويعتمد أفلاطون في «تحول الطاغية إلى ذئب» على أسطورة يونانية تقول إن المرء إذا ما ذاق قطعة من لحم الإنسان، ممتزجة بلحم قرابين مقدسة أخرى فإنه يتحول حتمًا إلى ذئب![2]، وبالمثل فإن الحاكم الجبار الذي أمسك بدفة الحكم باسم «نصير الشعب»، يبدأ في سفك دماء المواطنين حتى لا يتآمروا عليه، فكأنه بذلك يأكل لحم أخيه، هكذا يتحول إلى ذئب مفترس!.

«فإذا شك أن لبعض الناس من حرية الفكر ما يجعلهم يأبون الخضوع لسيطرته، فإنه يجد في الحرب ذريعة للقضاء عليهم، بأن يضعهم تحت رحمة الأعداء، لهذا السبب كان الطاغية دائمًا مضطرًا إلى إشعال نيران الحرب!»[3].

غير أن هذا المسلك لن يكسبه إلا كراهية متزايدة من مواطنيه! [4].

بيد أن ظلم الطاغية لا يعرف تفرقة بين المواطنين، وليس للطاغية «صديق» فهو لا يمانع في الغدر بالأصدقاء أو المعاونين إذا ما اشتبه فيهم:

«فهو إذا وجد من بين أولئك الذين أعانوه على تولي الحكم، والذين أصبحوا من ذوي السلطان والنفوذ فئة من الشجعان الذين يعبرون عن آرائهم بصراحة أمامه وفيما بينهم وينتقدون

(1) أفلاطون «الجمهورية» 566 الترجمة العربية للدكتور. فؤاد زكريا ص 489.
(2) أفلاطون: المرجع نفسه.
(3) المرجع السابق.
(4) أفلاطون: الجمهورية 567.

ما يقوم به من تصرفات.. فإن الطاغية لا بد أن يقضي على كل هؤلاء إن شاء أن يظل صاحب سلطان. بحيث لا يترك في النهاية شخصًا ذا قيمة سواء بين أصدقائه أو أعدائه»[1].

و إذن فلا بد له من «إبصار حاد»[2]، لكي يرى كل من تتوافر لديه الشجاعة أو عزة النفس أو الذكاء أو الثروة. وهكذا شاء طالعه أن يظل - طوعًا أو كرهًا - في حرب دائمة مع الجميع، وأن ينصب لهم الشراك، حتى يطهر الدولة منهم! و يا لها من طريقة في التطهير! إنها عكس طريقة الأطباء، فهؤلاء يخلصون الجسم مما هو ضار فيه و يتركون ما هو نافع، أما هو فيفعل العكس! [3]؛ ذلك أنه لا يستأصل إلا المفيد والنافع، لأن لا يقضي إلا على الشرفاء، والمفكرين، والشجعان، والمخلصين، الذي يرفضون نفاقه[4].

(1) المرجع نفسه.
(2) هذا يفسر لك «التطور الهائل» في أجهزة المخابرات عندنا!.
(3) أفلاطون «الجمهورية» 567 - ص 492 من ترجمة الدكتور. فؤاد زكريا.
(4) كان أفلاطون يتحدث عن تاريخنا القديم والوسيط والمعاصر!! والأمثلة لا حصر لها: من تعذيب المنصور لأبي حنيفة وحبسه، وجلده، ودس السم له في النهاية لأنه رفض ولاية القضاء، إلى جلده للإمام مالك وهو عاري الجسد غير مستور العورة تشهيرًا به لذكره حديثًا عن الرسول ﷺ لم يعجبه، إلى التطهير الذي قامت به ثورة يوليو في الجامعة وغيرها للتخلص مما هو نافع كما يقول أفلاطون، إلى مظاهرات 1954 التي هتفت أمام مجلس الدولة: «يحيا الجهل، ويسقط العلم» إلى ضرب فقيه مصر الأول الدكتور عبد الرزاق السنهوري في مكتبه، إلى مذبحة القضاء، إلى القتل والسحل والتعذيب. ونسف القرى كاملة، وضربها بالطيران والغازات السامة في العراق وغير العراق، إلى نبش القبور وإخراج الجثث وعظام الموتى، لإلقائها في البحر، لأن تراب الأرض الطاهر لا يأوي الخونة!. فظائع لا مثيل لها وكلها أمثلة تؤيد ما يقوله أفلاطون الذي يكاد يصف ما نعيش فيه!!.

لكن تصرفات الطاغية، علـى هذا النحو، تثير في نفوس مواطنيه المزيد من الكراهية، فيزداد بدوره حاجة إلى حرس أكبر عددًا وأشد إخلاصًا[1]:

«وهم سـيتقاطرون عليه من تلقاء أنفسـهم بأعـداد كبيرة، إذا ما دفع لهـم أجورًا كافيـة..»[2]. ولكـن المعجبين به لـن يتجاوزوا أولئـك الرفاق المنتفعين الذين يجتمعون به، ويدافعون عنه، لأنهم يعلمون أن سقوطه يعني سقوطهم أيضًا «.. أما المواطنون الشرفاء، فإنهم يمقتونه، وينفرون منه..»[3].

لكن الرفاق المنتفعين، أو بطانة الطاغية، ليست مجموعة من الأصدقاء، أو «رفاق السـلاح»! بل قد يكون منهم الكتاب والشـعراء الذين يدفع لهم الطاغيـة بسـخاء، لأنه يعلم أن شـهرته لن تكـون إلا عـن طريقهم. ولهذا فسـوف نجد من الشـعراء من يمتـدح الطاغيـة، ويرى أن الطغـاة يكتبون الحكمة بفضل صحبتهم للحكماء..

«ويقولون أيضًا إن الطغيان يقرب بين الناس وبين الآلهة، وسنرى الشـعراء يطوفون البلاد واحدة تلو أخـرى فيجمعون الجماهير، ويسـتأجرون أصحـاب الأصـوات الجميلـة المقنعة لـكي يغروا الجماهير على الأخذ بدستور استبدادي!»[4].

(1) حتى يتحول الجيش في النهاية إلى حرس جمهوري مهمته حماية الحاكم لا البلاد، فإذا دخل حربًا مُني بهزيمة في غاية البشاعة لأنه لم يكن في برنامج تدريبه إلا الحراسة!!.

(2) أفلاطون «الجمهورية» 567 - ص 492، وهذا هو تفسير الزيادات الهائلة في رواتب العسكريين!.

(3) المرجع نفسه 568 ص 493.

(4) المرجع السابق، وقارن قول الأخطل لآل مروان: =

ويغدق الطغاة الكثير من الأموال على الشعراء، والكتاب، والأنصار، والأغوات، كذلك يعدون «المكافآت والجوائز» والمهرجانات.. إلخ. ولاشك أنه لو كان في الدولة كنوز مقدسة، فسوف ينهبها كما ينهب أموال الضحايا من المواطنين. ومن الواضح أنه يعيش هو ورفاقه، وحاشيته، وبطانته، وعشيقاته، من ثروة أبيه - أي الشعب. وهكذا نجد أن الشعب الذي أنجب الطاغية يجد نفسه مضطرًا لإطعامه هو وحاشيته[1]!.

غير أن أفلاطون يتنبأ بأن الشعب سوف يدرك مدى الكارثة التي جلبها على نفسه يوم ساند الطاغية وارتضى حكمه: يقول:

«إن الشعب سيدرك بحق، مدى الحماقة التي ارتكبها حين أنجب مثل هذا المخلوق ورعاه، ورباه، حتى أصبح هذا المخلوق أقوى من أن يستطيع الشعب أن يطرده!»[2].

أعطاكم الله ما أنتم أحق به إذا الملوك على أمثاله اقترعوا

وقول الفرزدق لهم أيضًا أن الله جعلهم الخلفاء ونصرهم على أعدائهم:

فالأرض لله ولاها خليفته وصاحب الله فيها غير مغلوب

ومن ذلك الكثير في التراث العربي - فإذا أضفنا جريرًا كان لديك شعراء السياسة في بني أمية «فقد كان الأخطل لسان الدفاع عن الدولة، وصحافي السياسة القائمة، كما أصبح رسول قومه لدى الدولة، وكان يعيش في البلاد ناعمًا بالحظوة والإكرام منادمًا ليزيد بن معاوية في شرب الخمور، ملازمًا له في الحج إلى البيت الحرام»، الجامع في تاريخ الأدب العربي - ص 465 - دار الجيل - بيروت 1986، وكذلك «الأمويون والخلافة» للدكتور. حسين عطوان ص 30 وما بعدها - دار الجيل عام 1986، ويقال الشيء نفسه عن الدولة العباسية وشعرائها!!

(1) الجمهورية 568 - والترجمة ص 494.

(2) الجمهورية 569 - والترجمة ص 494.

ومعنى ذلك أن الكارثة الكبرى هي أن الطاغية سيمكن لنفسه بحيث يستحيل على الناس أن تتخلص منه، وإذا كان أفلاطون يشبه الشعب بالأب الذي أنجب ابنًا عاقًا هو الطاغية، فإنه يتساءل:

«ما الذي يحدث إذا غضب الشعب، وقال إنه لا يليق بابن زهرة العمر أن يعيش عالة على أبيه، وأن الابن هو الذي ينبغي أن يعول أباه، وأن هذا الأب لم ينجبه ولم يربه ليرى نفسه عبدًا لعبيد ابنه حين يشب، أو لكي يظل يطعمه هو وعبيده، وتلك الحثالة التي تحيط به، لكي يخلصه عندما يتولى قيادته من الأغنياء؟ ولنفرض أن الشعب قد طلب منه مغادرة الدولة هو وحاشيته، مثلما يطرد الأب من بيته ابنًا عاقًا، ومعه رفاقه الأشرار، فما الذي يحدث عندئذ؟!. ويجيب: أن الشعب سيدرك مدى الحماقة التي ارتكبها حين أنجب هذا المخلوق!. وينتهي أفلاطون إلى أن الطاغية، لديه من الوقاحة، ما يجعله يجرؤ على الوقوف في وجه أبيه، بل وضربه إن لم يستسلم لأوامره: «الطاغية قاتل لأبيه، وهو بشر عاق لا يرحم شيخوخة أبويه، وتلك هي حقيقة الطغيان الذي لا يختلف عليه اثنان! وهكذا فإن الشعب يستجير، كما يقول المثل، من الرمضاء بالنار! إذ إن خوفه من الوقوع تحت سطوة الأحرار يجعله يقع تحت سطوة العبيد! وهكذا تتحول الحرية المتطرفة الهوجاء إلى أقسى وأمر أنواع العبودية، وأعني بها الخضوع للعبيد..»[1].

(1) الجمهورية 569 - والترجمة ص 495.

رابعا: شخصية الطاغية

أ - تصنيف الرغبات:

سبق أن ذكرنا أن أشكال الحكم الخمسة تقابلها خمس أنفس عند البشر، أو خمس شخصيات من الرجال، فكيف حدد أفلاطون ملامح شخصية الطاغية؟!

يصنف أفلاطون في نهاية الكتاب التاسع من الجمهورية رغبات الإنسان إلى نوعين أساسيين: رغبات ضرورية، ورغبات غير ضرورية، وهو تصنيف يقترب مما يقوله علم النفس الحديث عن الحاجات الأولية، والحاجات الثانوية عند الإنسان. أما الأولى فهي تلك الرغبات التي لا نستطيع لها دفعًا. كما أن إشباعها مفيد لنا من ناحية أخرى، في حين أن الثانية لا يجلب إشباعها أي خير، بل ربما عاد بالضرر علينا.

أما الرغبات الأساسية فهي كالرغبة في الطعام مثلاً، وهي ضرورية لأنها تفيد الصحة، وتصون البدن، ومن هنا كان إشباعها مفيدًا ولازمًا للحياة في آن معًا. لكن إذا كان الخبز واللحم ضروريين للحياة فإن الإسراف فيهما، أو الرغبة في تجاوزهما إلى أنواع أخرى أكثر تنوعًا سوف يعد أمرًا غير ضروري[1]. أما النوع الثاني من الرغبات، وهو غير الضروري، فربما كان أوضح نموذج له: الملذات والرغبات التي يظهرها اللاشعور في الأحلام، أعني:

«عندما يُغيب الكرى ذلك الجزء العاقل الرقيق من النفس الذي يتولى التحكم في الجزء الآخر، وينطلق الجزء الحيواني المتوحش في

(1) أفلاطون: الجمهورية.

النفس من عقاله مثقلاً بالطعام والشراب، فينفض عن نفسه النوم، ويبحث عن مجال لنشاطه، ومتنفس لشهواته. والنفس هاهنا لا تخجل من شيء قط!! كما لو كانت قد تخلت عن كل حياء، فلا تتردد في ارتكاب أية جريمة ولا تستحرم أي طعام!»[1].

ويصور أفلاطون، ببراعة، كيف يخرج «الطاغية» من إهاب الرجل الديمقراطي فهو ابنه!، وكيف يندفع نحو الرغبات الهوجاء، فيتولد في نفسه حب جارف يرعى الرغبات المتطرفة، وعندئذ تحتل هذه الرغبة الموقع الرئيسي في النفس، وتتخذ من الجنون زعيمًا لحراستها، وتثور ثورة هوجاء، فإذا صادفت بعض الرغبات أو الأنظار العاقلة التي لا يزال فيها بقية من حياء، فإنها تقتلها أو تطردها بقسوة، حتى تطهر النفس من كل اعتدال، وتدعو الجنون لكي يحل محلها! وهكذا يغدو المرء طاغية حين يصبح، بالطبع أو بالتطبع، أو بهما معًا، جامعًا بين صفات السكير، والعاشق، والمجنون[2].

على هذا النحو تتكون الملامح العامة للطاغية عندما تسيطر عليه الرغبات اللاواعية (اندفاع اللاشعور الهمجي كما يقول فرويد) وتتحكم في سلوكه، فكيف تسير حياة مثل هذا الرجل..؟!

ب- حياة الطاغية:

يصور أفلاطون حياة الطاغية منذ اللحظة التي تسيطر عليه فيها الرغبات والميول الشهوانية الجامحة التي لا تعرف حدًّا للإشباع. يصور هذه

(1) الجمهورية 571، الترجمة ص 497.

(2) المرجع نفسه.

الحيـاة على أنها سلسـلة من «أعياد اللذة، والمآدب، والعشـيقات، وغيرها من الانحرافـات المنحلة»[1]. والمقصـود بالطبع أنه ما دامـت الرغبات والميول الشـهوانية هي المسيطرة، فسـوف يعيش مثل هذا الإنسان حياة بوهيمية بلا قيم ولا مبادئ، بل إن هذه الرغبات سـوف تخلق رغبات أخرى على المستوى نفسـه من البهيمية «فيظهر في كل ليلة العديد من الشـهوات العنيفة الملحة التـي يقتـضي إشـباعها شروطًا متباينـة!». و إشـباع هذه الرغبـات المنوعة المتجددة كل يوم يحتاج إلى مال و إنفاق، وسرعان ما تنضب موارده فيبدأ في الاقتراض، كما يبدأ في تبديد ميراثه وممتلكاته، لكن عندما يأتي عليها جميعًا، ولا يبقـى منها شيء، لا تكـون الرغبات قد ارتوت. لأنهـا متجددة ومتنوعة وولادة لرغبـات أخرى! فتصرخ هذه الرغبات العنيفة العديدة وتلدغه هذه الشـهوات، فيجري هنـا وهناك كالمخبول، باحثًا عن صديـق أو جار.. إلخ يملك شـيئًا يأخذه منه بالخديعـة أو بالإكراه!، لأنه إذا أراد ألا يروح ضحية الآلام المبرحة، والهموم الثقيلة، فإن عليه أن ينهب من كل مصدر: وسـوف يبـدأ بالبيـت فيدعى أنـه قيم على أبيه وأمـه فينهبهما بعـد أن يكون قد بدد نصيبـه من أموالهما!. إنه الآن لا يريد نصيبه فقط، و إنما يريد أن ينفق عن سـعة من أموال والديـه، فإن لم يستسـلم الأبوان لمطالبه لجـأ إلى السرقة أو الخداع، ثم إلى العنف ليسـلبهما ما يملكان، فإن تمسـكا بعنادهما، وأصرا على مقاومته، فإنه لا يحجم عن سلوك الطاغية الذي لا يرحم أحدًا، ولا يقيم وزنًا للأخلاق والقيم: إنه لا يتورع عن ضرب أمه أو الإساءة إلى أبيه المسن[2].

(1) المرجع السابق نفسه.

(2) كانت الخيزران «أم الهادي» - الخليفة العباسي الرابع - سيدة تغدو المواكب إلى بابها، فزجرها ابنها عن ذلك وكلمها بكلام وقح، وقال: لئن وقف ببابك أمير لأضربن عنقه،=

وتتكدس الرغبات في نفس الابن الطاغية، فيحاول أولًا أن ينقب جدار البيت، أو يسرق عابر سبيل في جنح الظلام، أو أن ينهب المعابد! لقد ولد هذا الشاب لأب ديمقراطي كما ذكرنا، ولقد كان في البداية خاضعًا للقوانين ولسلطة أبيه، ولم تكن هذه الرغبات المنحرفة، أو الأفكار السيئة، تنطلق من عقالها إلا أثناء النوم، أما بعد أن تحول إلى طاغية مستبد فإنه يصبح طوال حياة اليقظة - أعني طوال حياته الواعية، ذلك الرجل الذي كان يصحبه من آن لآخر أثناء نومه، أي أن القوى اللاعقلانية واللاشعورية هي التي طغت على سلوكه، وأصبحت مسيطرة على كل تصرفاته، ربما كان في السابق يحلم أنه يسرق أو يقتل أو يرتكب فعلًا فاضحًا.. إلخ. أما الآن فهو يستبيح لنفسه إراقة الدماء وأكل أي طعام محرم، وارتكاب أي سلوك شائن، واقتراف أية رذيلة.. إلخ. وهكذا تسوقه القوى اللاواعية - التي تحدث عنها فرويد بالتفصيل بعد ذلك بأكثر من عشرين قرنًا - إلى الفوضى والاضطراب، مثلما يقود الطاغية الدولة إلى مغامرات طائشة![1].

جـ - أعوان الطاغية:

مثل هذه الشخصية البهيمية، أو الحيوان الأكبر - كما يسميها أفلاطون - لن تصادق إلا رفاق السوء، ولهذا ينبغي ألا نندهش عندما نجد أعوان

= ثم بعث إليها بطعام مسموم لكنها أطعمت منه كلبًا فمات، فعمدت إلى قتله! تاريخ الخلفاء للسيوطي ص 280، ونيرون Neron (37 - 68) إمبراطور روما (54 - 68) اتبع في البداية نصائح معلمه الفيلسوف الرواقي الشهير Seneca ثم طغى فأجبر معلمه وأستاذه على أن ينتحر بقطع أحد شرايينه، وقتل أجريبا أمه، وقتل أوكتافيا زوجته، وأحرق روما واتهم المسيحيين بحرقها.. وفي النهاية انتحر!.

(1) أفلاطون «الجمهورية» 575 أ - الترجمة العربية ص 501.

الطاغية يمارسـون مجموعة من «الجرائم البسـيطة» كالسرقة أو السـلب أو «ثقـب الجـدار» أو اغتصاب أمـوال المارة وملابسـهم، وبيـع الأحرار على أنهـم عبيـد، وإذا كانوا يجيدون الحديث احترفوا الوشـاية، وشـهادة الزور أو الاتهـام الكاذب مقابل رشـوة ونحن نصف هذه الجرائم بأنها «بسـيطة» بالنسـبة للجرائم الفادحة التي يرتكبهـا الطاغية، فهذه الآثام كلها، لا تكاد تكون شـيئًا مذكورًا، إذا مـا قورنت بما يجلبه الطاغية عـلى الدولة من بؤس ودمار وبلاء.

ويشـير أفلاطون إشـارة نافذة إلى أن هـؤلاء الأعوان يمكـن أن يخلقوا الطاغيـة! يقـول: «إذا وجـد في الدولـة عدد كبير مـن هؤلاء النـاس، ومن أتباعهم، وشـعروا بقوتهم، فإن هؤلاء - مسـتعينين بغباء الشعب - هم الذين يخلقون الطاغية، إذ ينتقونه. لأنه هو الشـخص الذي تنطوي نفسه على أكبر قدر من الطغيان»[1].

وعندئـذ إما أن يستسـلم له الشـعب طواعية، أو يعمل هـذا الطاغية - الـذي لم يتـورع من قبل عن إيذاء أبيـه وأمه - على معاقبـة قومه إن أمكنه ذلـك: فيدخـل بينهم عناصر جديدة مـن بين أنصاره المقربـين، ويخضع لهم أهلـه الذين كانـوا من قبل أعزاء لديـه، والذين هم شـعبه، ويجعلهم عبيدًا لهؤلاء الغرباء.. وهكذا تصل رغباته الطاغية إلى اكتمال تحققها..!

إن هـذا الطاغيـة اعتـاد قبل أن يسـتولي على زمـام السـلطة أن يختلط بالمنافقين الذين هم على استعداد لخدمته في كل شيء، فإذا كان هو في حاجة

(1) الجمهورية 575 - أ، ص 502.

إلى خدمة يؤديها له شخص آخر، فإنه يقف أمامه في مذلة وكأنه كلب خاضع متظاهـرًا بالإخلاص، حتى إذا قضى منه مأربه أدار له ظهره[1]. وهكذا نرى الطغاة طوال حياتهم: «لا يجدون لهم صديقًا، وإنما هم إما سادة مستبدون، وإما عبيد خاضعون!. أما الحرية والصداقة الحقيقية، فتلك نعمة لا يذوقها الطغاة أبدًا»[2]. وعلى ذلك فإن المرء يكون على حق، إذا قال عنهم إنهم لا يعرفون الإخلاص، وهم أيضًا ظالمون بكل معنى الكلمة.

وأخيرًا لا بد لنا أن نقول إن أسوأ أنواع الإنسان هو الذي يسلك في يقظته على النحو الذي قلنا إن الناس يسلكونه في منامهم، لأن الجانب العاقل يحد من الجانب الحيواني في الإنسان ويكبته، فإذا نام هذا الجانب العاقل، وهو الجانب الإنساني على الأصالة، انطلق الجانب الحيواني من عقاله يعربد كما يحلو له، وكأن الشخص في هذه الحالة هو مجرد حيوان!. فماذا نقول إذا أمسك هذا «الحيوان الأكبر» زمام السلطة في الدولة..؟! بل ماذا نقول إذا طالت مدة رئاسته لهذه الدولة؟! وما قولك في «أنه لا يتقاعد أبدًا، فهو إما أن يموت، أو يطيح به شخص آخر!. يقول أفلاطون إنه كلما طالت مدة ممارسته للطغيان، ازدادت هذه الطبيعة تأصلاً فيه.. وهكذا نجد أن الرجل الطاغية يشبه دولة الطغيان، مثلما أن الرجل الديمقراطي مشابه للدولة الديمقراطية وهكذا الحال في الباقين[3].

---

(1) المرجع السابق، والواقع أن أفلاطون يعبر هنا عما قاله المنصور في «حكمته الخالدة» إذا مد عدوك إليك يده فاقطعها إن أمكنك، وإلا فقبلها» تاريخ الخلفاء للسيوطي ص 268.

(2) الجمهورية 576 ب.

(3) المرجع السابق 576 - جـ.

د- النفس الطاغية:

الدولة والفرد، إذن، متشابهان، وكل منهما يتبين بأحوال الآخر. والدولة التـي يحكمها طاغيـة لا يمكن أن تكون حرة، وإنما هي مستعبدة إلى أقصى حـد، وإذا كانت الدولة مشـابهة للفـرد، فلا بد أن تتغلغل هـذه العبودية في نفس الفرد الطاغية أيضًا، بحيث نجده يحمل نفسًا وضيعة إلى أقصى حد، بل تهبط أشرف أجزاء نفسه إلى أدنى مرتبة من مراتب العبودية - علمًا بأن أخس هذه الأجزاء هو الذي يصبح سـيدًا مسيطرًا على تصرفاته وسلوكه. ومن هنا كانت النفس التي يسـيطر عليها الطغيان لا تفعل - بدورها - ما تريد، أعني ما تريـده النفس بأسرها، وإنما هـي دائمًا مدفوعة بقـوة الجوانب الوضيعة. وإذن فالنفس الطاغية لابد أن تكون فقيرة هزيلة يستبد بها الرعب، وتعاني الآلام والأنين، والشكوى، والتذمر!.

«فقـيرة هي النفس التـي تنظر إلى باطنها فتجد خـواء، فتمتد إلى خارجها لتقتني ما يسـد لها هذا الخواء، وماذا تقتني؟ تتصيد أناسًا آخريـن ذوي نفـوس أخـرى لتخضعهم لسـلطانها! إنهـا علامة لا تخطـئ في تمييز أصحاب النفـوس الفقيرة من سـواهم، فحيثما وجـدت طاغية - صغيرًا كان أو كبـيرًا - فاعلم أن مصدر طغيانه هو فقر نفسه. إن المكتفى بنفسه لا يطغى. إن من يشعر في نفسه بثقة واطمئنان ليس في حاجة إلى دعامة من سواه»(1).

(1) د. زكي نجيب محمود «... والثورة على الأبواب» ص 77 - الأنجلو المصرية، وباسمها الجديد «الكوميديا الأرضية» وقد أصدرتها دار الشروق.

وهكذا تكـون النفس الطاغية فقـيرة جدباء هزيلـة، ويكون الرجل الطاغية أفقر وأتعس الناس أجمعين، لا يفوقه في تعاسـته سـوى الرجل الذي وضعتـه الأقدار هـو وزوجته، وأطفاله، وعبيده، في صحـراء قاحلة لا يجد فيهـا عونًا من أحد، فيعيـش في حالة من الرعب والهلع الشـديد، مترقبًا على الدوام أن يقوم عبيده باغتياله هو وأطفاله وزوجته فيضطر إلى تملق عبيده، واسـتمالتهم بالوعـود!، ولذا فسـوف يظـل الطاغية حبيس حشـد هائل من المخاوف والرغبات[1].

وهـذا هو المحصـول الوفير من الـشرور التي يجنيها ذلـك الذي يسيء التحكـم في نفسـه فيصبح أشـقى الناس جميعًـا، وهو الرجـل الطاغية الذي تسـوقه الأقدار، فيأخذ على عاتقه حكم الآخرين، مع أنه عاجز عن حكم نفسـه! وكأنه مريـض عاجز، لكن الأقدار تدفعـه إلى أن يقضي بقية حياته مصارعًا في المسـابقات الرياضية بدلًا من أن يلزم الفراش! وهو موقف يعبر عن خلُف لا معقول.

وهكـذا نصل مع أفلاطون، إلى حقيقة مهمة، وهي أن الطاغية الحقيقي هو في واقع الأمر - وعلى خلاف ما يظن الناس - «عبد» بالمعنى الصحيح، بل هو شـخص بلغ أقصى درجات العبودية، ما دامت دوافعه الحيوانية هي التي تسـيطر عليه وتدفعه إلى تملق الناس[2]. وهو يقضي حياته في خوف مستمر،

---

(1) أفلاطون: الجمهورية 576 - د.

(2) هي نفسها الفكرة التي سيذهب إليها هيجل حين يقول إن الحاكم الشرقي هو الوحيد «الحر»، لكنا لو تأملناه بدقة لوجدناه عبدًا لغرائزه وشهواته. شأنه شأن الإنسان الطبيعي أو الإنسان في حالة الطبيعة، ومن هنا نراه يعارض بشدة فكرة «روسو» التي تذهب إلى أن الإنسان حر بالطبيعة ويقول إنه: على العكس عبد من زاويتين..=

ويعاني على الدوام آلامًا مرهقة، ويبدو أكثر الناس بؤسًا، بل يمكن أن نضيف إلى تلك الشرور شرًا آخر، وهو أن السلطة تنمي كل مساوئه، وتجعله أشد حسدًا وغدرًا وظلمًا، وأقل أصدقاء، وأشد فجورًا وأمعن في احتضان كل الرذائل.. إلخ. مرة أخرى: ذلك كله يجعله أتعس الناس قاطبة، بل إن تعاسته هذه تجعله يفيض أيضًا على كل من يحيط به.

ويرتب أفلاطون الأنواع الخمسة من الطباع ليحدد الدرجات المتفاوتة من السعادة بادئًا بأسعد الجميع لتكون على النحو التالي: الطبع الملكي، ثم التيمقراطي، والأوليجاركي، والديمقراطي، وأخيرًا: الطاغية!

ذلك لأن أسعد الناس هو أعدلهم وأصلحهم، وهو أقربهم إلى الملكية الحقة (أو قل إنه الملك الفيلسوف!) وهو أقدرهم على حكم نفسه، ومن ثم على أن يكون ملكًا على ذاته، قبل أن يكون ملكًا على الآخرين!، على حين أن أشقى الناس هو أخبثهم وأوضعهم وأجدبهم نفسًا، وهو من كان الطغيان في طبعه، من ينظر في داخله فيجد خواء يسده بالبطش بالآخرين!:

=عبد للداخل - أي لغرائزه وشهواته وانفعالاته.. إلخ. ثم هو عبد للخارج - أعني أنه عبد لظواهر الطبيعة التي لا يعرف لها تفسيرًا، فالريح التي تقتلع كوخه لا يجد أمامه سوى عبادتها.. إلخ، يقول إن الشرقيين لم يتوصلوا إلى أن الإنسان بما هو إنسان حر.. وكل ما عرفوه هو أن شخصًا معينًا حرًّا.. لكن حرية ذلك الشخص الواحد لم تكن إلا نزوة شخصية وشراسة وانفعالًا متهورًا وحشيًا.. ومن ثم فإن هذا الشخص الواحد ليس إلا طاغية.. لا إنسانًا حرًّا.. «العقل في التاريخ» ص87، العدد الأول من المكتبة الهيجلية - دار التنوير - بيروت ط3 عام 1983.

وانظر معارضته لفكرة روسو التي تقول إن الإنسان حر بالطبيعة ص 112، وما بعدها من نفس المرجع السابق. وسوف نعود إلى هذه الفكرة في الفصل الأول من الباب الرابع.

«فقيرة هي تلك النفوس التي تبطش بالأشـياء والأحباء الصبيان. فقيرة - يا أبا العلاء - هي تلك النفوس التي لا تخفف الوطء، لأنها لا تدري أن أديم الأرض هو من هذه الأجساد!» [1].

(1) د. زكي نجيب محمود «... والثورة على الأبواب» ص 82 وهو يتفق تمامًا مع فكرة أفلاطون التي تقول: إن الطاغية صاحب نفس فقيرة خاوية، قارن مقاله «نفوس فقيرة» في هذا الكتاب.